

## العمارة السورية القديمة

كانت سورية من الوجهة الطبيعية تضم في حدودها السياسية، حتى العشرينيات من هذا القرن، لبنان-فلسطين- الأردن، وكانت تعرف باسم سورية أو بلاد الشام. وقد سكنت في هذه المنطقة عدة شعوب بدءاً من العموريين فالأراميين والكنعانيين والفينيقيين ثم الأنباط فالعرب.

استوطن العموريون (الأموريون) وسط وشمال غرب سورية، وأقام حضارة عاصمتها مدينة ماري، التي بقيت تحت أنقاض تل الحريري حتى الثلاثينيات من هذا القرن، عندما بدأ بالكشف عنها العالم الفرنسي (اندرية بارو).

أما الشعب الكنعاني فقد سكن منطقة شمال ووسط سورية والساحل، أقام حضارة ضخمة وكبرى في وسط شمال سورية كان مركزها مدينة إيبلا، التي كشف عنها العام الإيطالي (باولو ماتيه) في عام /1964/. وبعدهم استقر الفينيقيون في الساحل السوري وأسسوا عدة مدن منها صيدا وصور وعكا وعمريت وبيبلوس وأوغاريت وغيرها من المدن. ولكن كانت أوغاريت هي مركز القيادة، والتي بقيت تحت الأنقاض تحت تل رأس شمرا إلى بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، عندما بدأ الكشف عنها العالم الفرنسي (كلود شفر).

كما أسس الشعب الآرامي عدة مدن وممالك في سورية القديمة، أشهرها مملكة الآلاخ في تل العطشانة قرب مدينة أنطاكية في شمال غرب سورية. وقد كشف عنها العالم (مالوان)، ومدينة غوزانا في تل حلف، التي كشف عنها (فون أوبنهايم)، وغيرها من المدن مثل: قرقميش- أرسلان طاش- وزنجرلي.

ولكن قبل التحدث عن هذه الحضارات يجب التذكير بالعوامل المؤثرة فيها، من عوامل طبيعية مناخية ودينية اجتماعية.

## الطبيعة الجيولوجية والمناخ:

تتنوع الأراضي السورية، من جبال غنية بالأخشاب والصخور بكل أنواعها، إلى سهول غنية بالتربة الغضارية الصالحة لصناعة اللبن والقرميد، مما نوع مواد البناء في عمائرها، وجعلها بالوقت نفسه عرضة لأطماع القوى المجاورة لها، لاحتلالها والحصول على موارها الغنية، خاصة الزراعية منها، كون مناخها ساعد على ازدهار الزراعة فيها، هذا المناخ الذي يتسم بكثرة الأمطار في الشتاء والحرارة صيفا، مما نوع من الإنتاج الزراعي، وساعد على تربية المواشي.

## العامل الديني والاجتماعي:

مع أن أسماء الآلهة اختلفت بعض الشيء من حضارة إلى أخرى في سورية القديمة، إلا أن الشعوب التي سكنت بلاد الشام قديما، كانت تقدر الظواهر الطبيعية والطبيعة الأم، وكانت في كثير من الأحيان تشترك في عبادة إله واحد وتعتبره كبير الآلهة وهو الإله (بعل أو بل).

كما أن الإلهة (عشتار أو عشتروت) كانت تعبد في أغلب مواقع الحضارة السورية، وكانت تمثل بأشكال مختلفة يجمع بينها قاسم مشترك، وهو أنها كانت تمثل على شكل امرأة تعطي الخير والخصب.

كان هناك اختلاف في شكل التركيب الاجتماعي لشعوب سورية القديمة، وذلك بسبب الاختلاف الجغرافي، ففي ماري وإيبلا وتل حلف والآخ كانت طبقة المزارعين ومربي المواشي، هي الطبقة الاجتماعية العامة، إضافة إلى المهنيين والتجار، أما في أوغاريت وباقي المدن الفينيقية، التي لم تعرف الوحدة السياسية أبدا، فقد كانت طبقة التجار البحارة هي الطبقة الأولى والهامة في المجتمع، إضافة إلى طبقة المهنيين والزراعيين والجنود.

جعل هذا الاختلاف في التركيب الاجتماعي مع التأثير الديني، العمارة في سورية القديمة متوزعة الاهتمامات من عمارة مدنية ودينية، ولكن بشكل لا يمكن مقارنته مع العمارة الدينية المصرية، ولا مع العمارة المدنية الرافدية. إذ أن العمارة السورية المدنية من قصور وبيوت كانت متواضعة، بالرغم من بناء بعض القصور، التي كانت تعتبر من روائع العمارة القديمة في الشرق والعالم مثل: قصر مدينة ماري- قصر إيبلا- والقصر الملكي في أوغاريت.

ومع ذلك كانت هناك شخصية معمارية واضحة للحضارات في سورية، إلا أن العمارة السورية كانت مجالاً رحباً للتأثيرات المجاورة، من عمارة مصرية ورافدية وحتى العمارة الحثية، التي انتقل تأثيرها بشكل مباشر أو عن طريق الحوريين والميتانيين، الذين ظهروا على نافذة الحضارة في سورية في الألف الثاني قبل الميلاد، وزالوا بسرعة مثلما ظهروا بسرعة.

## الحضارة المعمارية في ماري

تقع مدينة ماري فوق تل الحريري بالقرب دير الزور الحالية، على الضفة اليمنى لنهر الفرات، ويبعد 12/ كم عن مدينة البوكمال والحدود السورية - العراقية، و125/ كم عن دير الزور، ضمن منطقة مروية ومزروعة، ويجري نهر الفرات إلى الشرق من الموقع على بعد 3/ كم، إلا أن مجراه في العصور القديمة كان يحاذي أطراف المدينة التي كانت في تلك الفترة إحدى الممالك الهامة على نهر الفرات، لا سيما موقعها الاستراتيجي الذي يصل الخليج بالبحر المتوسط، ومحطة هامة على الطريق التجاري بين بلاد الشام وبلاد الرافدين.

وكانت مرتبطة بعلاقات دولية مع بابل ونيوى وآشور وأوغاريت ويمحاض، امتدت علاقاتها التجارية من يلمون (البحرين حالياً) إلى قبرص، فكانت منتعشة اقتصادياً، وعرفت فيها صناعة الزيوت والخمور والمنسوجات ومساحيق التجميل وطرق المعادن والنقش الدقيق على الأحجار الكريمة.

## ماري في التاريخ:

يمر تاريخ المدينة بحقتين، تبدأ الأولى في الألف الثالث قبل الميلاد وصولاً إلى العصر ما قبل الصارغوني، حيث كانت مقراً للسلالة العاشرة بعد الطوفان، وتنتهي الحقبة الثانية عام 1750/ ق.م في عصر حمورابي، الذي عمد بعد انتصاره على أعدائه للاتحاد مع زمري ليم ملك ماري، ثم ما لبث أن قام بمهاجمة دولة ماري حيث دمر المدينة وأحرقها بالكامل.

إن الرقم المسمارية التي تم العثور عليها أعطت معلومات مختلفة عن المدينة، منها أسماء الملوك وفترة حكمهم والأحداث التي مرت بها المملكة. وقد سيطرت على الحكم في ماري أسرة أمورية في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد، وأول ملك معروف في ماري يدعى يجيد- ليم، حكم نحو 1830/ ق.م.

## لغز الاكتشاف:

بقيت مملكة ماري لغزاً حضارياً بالنسبة للباحثين الآثاريين في سورية وبلاد الرافدين، وإن الرقم الأثرية التي عثروا عليها في الممالك الأخرى، كانت تتحدث عن مدينة غاية بالروعة والجمال والإبداع المعماري في المنطقة دون أن تحدد موقعها.

وأنت المفاجأة الكبرى للآثاريين عام /1932/، لدى اكتشاف بعض البدو عن طريق الصدفة لتمثال متعبد، لدى قيامهم بحفر قبر لأحد موتاهم في (تل الحريري)، الواقع على بعد /11/ كيلو متراً شمال غربي مدينة البوكمال على الحدود السورية، وسمي التمثال تمثال (كوبان) نسبة إلى الضابط الفرنسي الذي أشرف على إخراجها، لتكون بذلك بداية كشف لغز مملكة ماري، الذي حمل لواءه الخبير الفرنسي (أندريه بارو) بين عامي /1933/ حتى عام /1979/، لتتوجه أنظار العالم إلى ماري كإكتشاف هام في عالم الآثار، حيث توالى توافد البعثات الأثرية إلى الموقع ولا تزال أعمال التنقيب مستمرة.

## عمارة ماري:

يعود تخطيط مدينة ماري القديمة للألف الثالث قبل الميلاد، وهو تخطيط منتظم إلى حد أن الشوارع تمتاز باستقامة ملفتة للنظر، ومساكن هذه الفترة نوعين:

- مساكن مستطيلة الشكل لها ساحة داخلية في الوسط ومدخل واحد.
- مساكن دائرية المسقط ولها أيضاً ساحة في الوسط تتوزع حولها الغرف ومدخل واحد، والمباني كلها مبنية من اللبن على أساس حجري.

كما امتازت القصور هذه الفترة بأنها مبنية على شكل متراصة، تلتف حول ساحة داخلية مع جدران تمتاز بسماكة عالية وأبواب ضيقة، تأقلمت مع الشروط المناخية السائدة في المنطقة علماً بأن مادة البناء هي اللبن، ونادراً ما استعمل القرميد، كما أنه لم يكتشف عن أساسات حجرية. امتازت الساحة الداخلية في أهم قصور هذه المرحلة بالسعة وتعدد المداخل حيث كان لها ثمانية مداخل تسهل الحركة في الدخول والخروج أثناء الاحتفالات والاستقبالات، ومدخلان من مداخل الساحة الرئيسية يؤديان إلى قاعة تعتبر من أجمل وأكبر القاعات في القصر قاعة كبيرة وجميلة تشبه قاعات العرش. ولا يتفوق على هذا القصر سعة وشمالاً إلا القصر الذي يعود للألف الثاني قبل الميلاد ويعرف بقصر المالك زمري ليم.

## قصر ماري:

يمتاز قصر مدينة ماري الذي يعود لعصر الملك زمري ليم بمخططه غير المنتظم، أبعاده /200/ م طولاً و /120/ م في العرض، كما تبلغ مساحته حوالي /2.5/ هكتار تقريباً. يضم حوالي /300/ غرفة وصالة وعدة باحات داخلية.

للقصر سور ضخّم يلتف حول القصر كجدار قوي من كل الجهات، ما عدا مدخل واحد يقع في الجهة الشمالية الشرقية، يؤدي إلى ساحة تؤدي بدورها إلى ساحات القصر المتتالية.

تقع قاعة العرش المخصصة لجلسات الملك في الجهة المقابلة للمدخل في الساحة الكبرى، ويتم الدخول إليها عبر درج قليل الارتفاع ودائري الشكل مبني من القرميد، والباب في هذه القاعة فخم وعريض /4.5/م، كما أن الساحة الرئيسية الكبرى في القصر نفسها مبلطة بالقرميد المربع، ما عدا حوضاً في الوسط مخصص لزراعة الأشجار التي تلائم حجم القصر.

يقع في الزاوية الشمالية الغربية من القصر القسم الخاص بالملك وأفراد عائلته، وهو مؤلف من ساحة مبلطة بالقرميد، تتوزع حولها /23/ غرفة تشكل مجموع غرف هذا القسم، وغرفة الملك والملكة مزينة بزخارف جدارية، إضافة إلى أن غرفة الملكة مجهزة بغرفة حمام فيها مغطس للماء ومساند وغيرها من عناصر الراحة.

وكشف عن قاعتين بين الجناح الملكي والجناح الرسمي في القصر مخصصتين للدرس، ومجهزتين بالمقاعد والمعدات الرسمية، وقد بلغ عدد المقاعد في القاعة الأولى /45/ مقعداً وفي القاعة الثانية /23/ مقعداً كونها أصغر مساحة، والقاعتان مبلطتان بالقرميد والجدران مطلية بطبقة من الطين المصقول.

كانت الزخارف تغطي العديد من الجدران في القصر، وهي عبارة عن زخارف جدارية مصورة بألوان جميلة وزاهية، تعبر عن مواضيع متعددة دينية تاريخية واجتماعية، تعتبر آية في الفن والجمال، وهي من أجمل ما كشف من نقوش جدارية في الشرق العربي وفي العالم القديم وقتذاك. ويعتبر قصر ماري من عهد الملك زمري ليم أعجوبة فن العمارة والزخرفة في ذلك العصر، إذ كان قبلة يقصدها أبناء الملوك من أماكن بعيدة للاطلاع والتعلم. وقد سقط القصر بل مدينة ماري بكاملها في يد الملك البابلي حمورابي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

حظيت عمارة المعابد في ماري بالاهتمام الأكبر، وبنى سكان ماري معابد آلهتهم وفق طراز معماري مميز، وهي مشيدة من اللبن، ومن أهم المعابد المكتشفة:

### -الزيقورة:

تقع قرب القصر على أعلى مرتفع في المدينة، حيث شيدت فوق ست مصاطب على غرار زيقورات بلاد الرافدين، ويعود تاريخ بناءها إلى فترة أور الثالثة 2100 ق.م.

### - معبد عشتار:

يقع على حافة المدينة الغربية، يحتوي على منصات لتقديم القرابين وعلى قاعة للهيكل تقام فيها طقوس العبادة وخصص المعبد لعشتار إلهة الحب والحرب في فترة ما قبل سارجون.

### -معبد شمش

يقع في القسم الشمالي الشرقي من القصر ويتألف من باحة يحيط بها جدار ذو بروزات، وشيّد في فترة ما قبل سارجون.

### معبد نينهور ساغ:

ويقع في الزاوية الشمالية الشرقية للقصر وشرقي معبد داغان، شيّد في الألف الثالث ق.م، ووسّع في فترة لاحقة، حيث أضيف إليه بوابة بعمودين. وخصص للإلهة الحامية للأطفال.

### معبد داغان:

شيد هذا المعبد في الألف الثاني ق.م جنوبي الزقورة، وقد سمي أيضاً بمعبد الأسود لوجود أسدين من البرونز عند المدخل، وعثر فيه على العديد من التماثيل والأسود الصغيرة، وخصص لعبادة الإله داغان الذي عبد في ماري وترقا.

### معبد نيني زازا:

شيّد في فترة ما قبل سارجون وخصص لعبادة الإلهة عشتار.

### اللقى الأثرية:

### -الأرشيف الملكي:

يتألف أرشيف ماري من نحو / 25 / ألف رقيم طيني كتبت بالخط المسماري واللغة الأكادية. يشمل الأرشيف على وثائق اقتصادية وإدارية وسياسية، وقد غطيت الوثائق السياسية بأسود من البرونز حفاظاً على سريتها، وتقارير ورسائل ونصوص مختلفة تلقي الضوء على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية في ماري، وعلى علاقاتها السياسية والاقتصادية مع مجموعة الدول المجاورة.

### -كنز أور:

وهو عبارة عن جرة سليمة عثر بداخلها على خرزة من اللازورد بثمانية وجوه، كتب عليها بخط مسماري أنها هدية من ملك أور إلى إله ماري، ونسر برأس أسد ذيله من الذهب والعيون وبقية الجسم من اللازورد المحرز.

### -التمثيل:

#### -تمثال لمجي ماري:

عثر على هذا التمثال في معبد عشتار (الباحة 20) ويعود إلى عصر السلالات الملكية الأولى وحتى بداية الفترة الأكادية (2460)، وهو مصنوع من الحجر الأبيض ارتفاعه 27,7سم ومحفوظ في متحف حلب. يحيط بشعر الرأس عصابة مضمفورة ومعقودة من الخلف.

#### -تمثال أورنينا:

عثر عليه في معبد نيني زازا ويعود إلى عصر السلالات الأولى /2645-2460 ق.م/، مصنوع من حجر الجص ارتفاعه /26/ سم، محفوظ في متحف دمشق، كتب على كتف التمثال اسم أورنينا تجلس متربعة فوق أريكة وقد فقد ذراعها، تدل وضعيتها على أنها تمسك آلة موسيقية شعرها مسبل فوق أذنيها على ظهرها.

#### -تمثال ربة الينبوع:

عثر عليه في القصر الملكي طوله 1,42م وهو مصنوع من الحجر الكلسي ويمثل امرأة ترتدي ثوباً عليه أسماك صاعدة وهابطة، تسبح في مياه تفيض من إناء تمسكه الربة، وزينت بالأساور والأطواق والأقراط.

فقدت ماري أهميتها التاريخية والسياسية بعد سقوطها ودخلت النسيان، بالرغم من أنها سكنت في عصور لاحقة إلا أنها هجرت بعد نهاية الألف الأول الميلادي ودخلت النسيان، حتى بدأ العالم الفرنسي (أندريه بارو) التنقيب فيها، وكشف في عام /1933/ عن مكتبة تضم آلاف الرقم الفخارية، التي تعتبر من أهم الوثائق عن الحياة السياسية والاقتصادية للنصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد والنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، لمنطقة الشرق في بلاد الشام والرافدين.

د. عبير شدود